مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

القيم المطلقة وأبعادها المعرفية والإيديولوجية

الدكتور منذر شباني*
علي طوبال علي**

(تاريخ الإيداع 14 / 12 / 2014. قبل للنشر في 11 / 1 / 2015)

□ ملخّص □

القيم،ويدقق في تلك الآراء المختلفة بحثاً عن الدلالات المختلفة لتباينها واختلافها؛ثم يفحص حجج أصحاب تلك الآراء وينقدها ليكتشف الجذور العميقة المعرفية والإيديولوجية لتلك الخلافات.

ومن خلال التدقيق والبحث يظهر أن القائلين بمطلقية القيم يعكسون إيديولوجية محافظة تريد تثبيت واقع معين يخدم مصالحهم الإيديولوجية،وأن القائلين بنسبية القيم يعكسون مصالح إيديولوجية تريد استبدال هذا الواقع وتغييره.

كم يبين البحث أن أصحاب الآراء المطلقة في القيم يقرون فيما يتعلق بنظرية المعرفة بكون المعارف والحقائق ثابتة ومطلقة؛أما أصحاب الآراء النسبية في القيم فيؤكدون نسبية المعارف والحقائق العلمية وتغيرها.

الكلمات المفتاحية: قيمة، إيديولوجية، معرفة، مطلق، نسبي.

* أستاذ مساعد – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.
** طالب دراسات عليا (ماجستير) – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

Absolute Values; Its Knowledge and Ideological Dimensions

Dr. Monzeer Shbany*
Ali Tobal Ali**

(Received 14 / 12 / 2014. Accepted 11 / 1 / 2015)

□ ABSTRACT □

This research deals with values through studying opinions of philosophers who consider that values are absolute ,and compare it with opinions of philosophers who consider that values are relative. Then, the research analyzes and criticizes opinions and arguments of the two parts to discover their knowledge ,and ideological deep roots .

After that, it seems that philosophers who assert that values are absolute reflect conservative ideology , and want to fix social reality to serve their concerns; while philosophers who assert that values are relative reflect progressive ideology, and want to change social reality .

This research also clarifies that philosophers and thinkers of absolute values believe in absolute facts and knowledge; while philosophers and thinkers of relative values believe in relative facts and knowledge.

Key words: Value, Ideology, Knowledge , Absolute, Relative.

*Associate professor, department of philosophy, faculty of arts and humanities, Tishreen university, Lattakia, Syria.
**Postgraduate student, department of philosophy, faculty of arts and humanities, Tishreen university, Lattakia, Syria.

مقدمة:

إن مفهوم القيمة هو من أكثر المفاهيم الفلسفية خصوبة وفعالية وإثارة للجدل المرتبط بعوامل معرفية وإيديولوجية لها جذورها وتشعباتها المختلفة.

إن القيم ذات طبيعة مثالية وهي تمتلك أبعاداً عقلية وعاطفية،ولها تأثير كبير على الفعالية والسلوك،فالقيم التي يعتنقها الأفراد والجماعات هي التي تدفعهم للإقدام على فعل وللإحجام عن أخر،وهي التي تمدهم بالزخم اللازم للاستمرار في الفعل.

وبإمكاننا أن نقول : إن جميع ظواهر الحياة النفسية والاجتماعية سواء أكانت بسيطة أم مركبة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقيم بوصفها محددات للسلوك ومنطلقات للعمل.

ورغم أن القيم تتشكل في سياقات تاريخية نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمعرفية،فإنها عندما تتبلور تبدو مستقلة،وتكتسب قوة دافعة تستنهض الطاقات،وتدفع الأفراد والجماعات لينظموا خبراتهم وسلوكياتهم.

إن القيم تتدخل في إصدار الأحكام،وفي بناء المواقف،وتدفع للسلوك على أنحاء معينة في مواقف معينة،وهي بتفاعلاتها وديناميتها تتدخل في بناء اتجاهاتنا،وفي تحديد أشكال استجاباتنا،وردود أفعالنا إزاء مختلف الموضوعات،وفي مختلف المواقف.

أهمية البحث وأهدافه:

إن كل أشكال الفعالية الإنسانية في المجتمعات تستند على القيم سواء أكان هذا الاستناد على نحو مباشر أم غير مباشر بما في ذلك الأعمال البحثية والإنتاجية والنشاطات التي تمكّن الإنسان من إخضاع الطبيعة والسيطرة عليها،وهذا ما يعطي للدراسات القيمية أهمية كبيرة،وقد اعتقد رالف بيري «أن التحكم بالطبيعة والسيطرة عليها تطلب التحكم بالسلوك الإنساني والسيطرة على الذات الإنسانية وهذه هي مهمة الدراسات القيمية»[1]

إن التفكير في القيم هو واحد من أهم الموضوعات التي يجب أن يتصدى لها التفكير الفلسفي المعاصر نظراً لارتباط القيم بكل أشكال الفعالية الإنسانية،وبكل تعيناتها وإنجازاتها،ولأن لهذه الدارسة علاقة وثيقة بفهم أزمات المجتمع ومشكلاته،وفي التأسيس لحلها.

النتائج والمناقشة:

المطلق والقيم المطلقة

المطلق هو غير المشروط،وغير الآني ولا يتوقف وجوده على شيء أخر غيره،فإذا تحدثنا عن قيم مطلقة فمعنى ذلك أن هذه القيم هي قيم تعلو على التغير،ولا تتوقف على شيء أخر غيرها؛فهل يصح هذا الوصف على القيم التي يعتنقها أفراد الجنس البشري ويؤسسون سلوكهم عليها؟..

وهل هناك قيم ثابتة تعلو على ظروف الإنسان المتغيرة وتفرض نفسها على أفراد الجنس البشري في كل الظروف؟..

---

[1].PERRY.R. ,*General theory of value*,Harvard university press,1950,p12.

إن هناك فريقاً من المفكرين والفلاسفة يعتقدون بوجود قيم مطلقة تصلح لكل زمان ومكان،وتعلو على التغير،وهناك فريق أخر يعتقد بوهم هذا الاعتقاد،ونحن نميل إلى تبني هذا الرأي الذي ينظر إلى القيم نظرة تاريخية تمكن من رؤية تبدلاتها وتحولاتها عبر الصيرورة التاريخية.

إن القول بوجود قيم ثابتة ومطلقة تقبع خارج الزمان والمكان،وتعلو على التغير هو قول تتزاوج فيه المعارف الأسطورية اللاتجريبية واللاعلمية مع مصالح جماعات مهيمنة ترى بوعي ظاهر أو خفي أن في ثبات القيم تلبية لمصالحها وتعزيزاً لمواقعها وامتيازاتها.

إن تجميد القيم وإخراجها خارج الزمان وخارج التفاعلات الإنسانية هو شكل من أشكال الدفاع الإيديولوجي عن جماعات تخدم النظرة المطلقة للقيم مصالحها،وتلبي احتياجاتها.

إن الفترات التاريخية التي انتظمت فيها العلاقات الإنسانية بالاستناد إلى قيم مطلقة تفرض سلطتها من علٍ على الأفراد والجماعات كانت فترات خواء معرفي وركود حضاري اجتر الناس فيها أفكاراً وقيماً مغلقة وجامدة كرست الواقع القائم وأعاقت كل تجدد أو إبداع.

إن القيم بمختلف أشكالها وأنواعها شديدة الالتصاق بالحياة الاجتماعية للإنسان،فقد نشأت القيم وتطورت في سياق التطور التاريخي لتضطلع بأدوار تنظيمية،ولتتصدى لمشكلات ولتواجه تحديات تعترض الأفراد والجماعات،ومن غير الصحيح إخراجها من مكانها الصحيح وتعليقها في سماوات الوهم والخيال،فكل «قيمة أو معيار مشتق منها،سواء عظمت قيمتها الاجتماعية أم تضاءلت وسواء كانت مقدسة أم مادية نفعية هي في أحد أشكالها توافق مع مشكلة متكررة النشوء»[2].

وما القداسة التي قد تغلف بها القيم إذن إلا شكلاً من أشكال التكيف وشكلاً من أشكال الدفاع عن هوية معينة وامتيازات واضحة أو خفية.

فإضفاء صفة القداسة على أية قيمة –مهما كانت طبيعتها ومضامينها – يقوي هذه القيمة ويزيد فعاليتها،ويحصنها لتنجو من النقد ومن محاولات التغيير.

إن مقارنة المجتمعات المختلفة،وتتبع مسارات التاريخ،والتعمق في دراسة طبيعة المجتمعات الإنسانية وعوامل تغيرها تؤكد أن «القيم والمعايير،إذا جاز التعبير ليست سوى تعديلات وتهيؤات وتوافقات يجريها الناس في تفاعلاتهم مع البيئة المحيطة بهم ومع بعضهم البعض أيضاً»[3]

أطروحات وحجج وآراء أصحاب القيم المطلقة

إن صحة القيم وسلامتها بالنسبة لدعاة القيم المطلقة تقتضي إطلاقها وبعدها عن النسبية والتغير،فبالنسبة لهم إما أن تكون القيم قيماً مطلقة وإما ألا تكون قيماً على الإطلاق.

إن القول بثبات القيم وبمطلقيتها يعني ضمن ما يعني أن القيم واحدة عند جميع البشر،أو أن كل الأفراد في كل المجتمعات في كل العصور يقرون بمعايير ثابتة لا تتغير لضبط التفكير والسلوك،ولتقويم الأداء،وإن حصلت انحرافات عن هذه المعايير الثابتة في السلوك والتطبيق،فإن هذا لا يتنافى مع القول بمطلقية القيم وبثباتها عند القائلين بأن القيم مطلقة لا تتغير.

---

[2] – نيسبت،روبرت– وبيران،روبرت،*علم الاجتماع*،ترجمة جريس خوري،دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،طبعة أولى،1990 ، ص 224.

[3] – المرجع نفسه،ص224.

يعتقد أصحاب النظرة المطلقة للقيم «أن الضمير أو الشعور الخلقي يؤلف لدى كل فرد كلاً متسقاً،تمثل أوامره المختلفة تطبيقات متنوعة لإلزام أخلاقي واحد»[4]،وبالنسبة لهؤلاء القائلين بالقيم المطلقة يتمتع هذا الإلزام الخلقي –بفضل استناده إلى ركائز ثابتة ومطلقة– بكفاءة تجعله صالحاً لكل زمان ومكان ولكل حالة وظرف،فالخير يبقى خيراً في كل الأحوال،والقيمة الإيجابية تظل قيمة إيجابية مهما تغيرت الظروف سواء أوجد من يلتزم بها ويطبقها أم من يستهتر بها ويخرقها.

إن الالتزام بمضامين وتوصيات القيم المطلقة بالنسبة للقائلين بها كفيل بتحقيق الانسجام داخل المجتمع،وكفيل بتحقيق السعادة في أعمق معانيها،وفي أكثر أشكالها اجتماعية وإنسانية واتساعاً.

ومهما كانت ركائز ومصادر الإطلاق والمطلقية عند أصحاب النظرة المطلقة للقيم،فإنهم جميعاً يعتقدون «إن القيم نفسها لا تتغير،وإنما الذي يتغير هو إدراكنا لها أو نفاذ بصيرتنا إليها،وذلك لأن القيم بطبيعتها موضوعية قائمة بذاتها،وأما إدراكنا لها فهو أشبه ما يكون بعملية ذهنية تتغير بتغير الزاوية التي نوجه منها أبصارنا إلى تلك القيم وتتذبذب وفقاً لذبذبات حركة العين الذهنية التي تحاول التقاطها»[5]

نماذج من القيم المطلقة

القيم عند أفلاطون:

إن أفلاطون هو أبرز القائلين بثبات القيم وبمطلقيتها في العصور القديمة،فقد قدم أفلاطون لعصره ولتاريخ الفلسفة نظريته في المثل،وبناء على مقتضيات هذه النظرية لا تكمن الحقيقة أو القيمة «في الظواهر المحسوسة التي تتوالى في بصرنا وسمعنا لأن هذه الظواهر ليست دائماً كذلك ولا هي فيما لها من صفات،فلو فرضنا أنها جميلة أو خيرة فإنها ليست جميلة ولا خيرة إلا من جهة معينة ولوقت معين أما المطلق الدائم الحقيقي فهو مثالها العقلي الجمال في ذاته والخير في ذاته وهذه وحدها موضوع علم الفيلسوف»[6]وبناء على ذلك فإن ينبوع كل حقيقي أو قيّم يكمن في عالم المثل التي رأى أفلاطون أنها ذات طبيعة مفارقة ثابتة ومطلقة ولا زمانية وهي تتمتع بوجود فكري وواقعي تشتق منه كل أشكال الوجود المحسوس وكل أحكام القيمة.

فمن خلال نظريته في المثل اتخذ أفلاطون موقفاً واضحاً من قضية القيم يؤكد على ثبات القيم وعلى مطلقيتها ولازمانيتها،وقد كان لموقف أفلاطون القيمي ولإصراره على ثبات القيم وعلى مطلقيتها أبعاد إيديولوجية،فأفلاطون ينتمي إلى طبقة أرستقراطية من مصلحتها أن تثبت الواقع بما فيه من تراتبية ومن امتيازات لها،فانطلاقاً من انتمائه وتأسيساً على هذا الانتماء حرص أفلاطون على شرعنة الامتيازات التي تخص طبقته وحرص على تأبيدها،وكان هذا الحرص أحد أهم العوامل الخفية التي وقفت وراء مناداته بثبات القيم وبمطلقيتها.

إن تمسك أفلاطون بمطلقية القيم وثباتها هو دفاع خفي عن امتيازات طبقته التي عبر عنها بشكل معلن على لسان سقراط قائلاً: إن «التعدي على أعمال الغير واختلاط طبقات المجتمع الثلاث،ليس في الواقع إلا الفوضى بعينها والدمار بل هو جريمة لا شك فيها»[7]فالانتماءات الطبقية وامتيازاتها هي أمر طبيعي وعادل وهي ثابتة لأنها تعينات لقيم

---

[4] – ابراهيم،زكريا،*المشكلة الخلقية*،مكتبة مصر،القاهرة،د.ت،ص61.

[5] – المرجع نفسه،ص77.

[6] – مطر،أميرة حلمي،جمهورية أفلاطون،مكتبة الأسرة،القاهرة،1994،ص33.

[7] – المرجع نفسه،ص28.

ثابتة ومطلقة وأية محاولة للإخلال بهذه الانتماءات وبامتيازاتها هي اعتداء على القيم المطلقة وخروج عن توصياتها ومتطلباتها.

لقد جاء الفهم الأفلاطوني لطبيعة القيم خادماً لمصالح الأسياد،ومساعداً في شرعنة وتأبيد التراتبية؛لقد أقر أفلاطون العبودية واعتبرها أمراً طبيعياً،وكان أمراً شديد السوء ومنافياً للطبيعة وللقيم العليا بالنسبة له «أن يعد الرقيق نفسه مساوياً في الحرية لسيده،وعندئذ تثور حتى الدواب على أوضاعها»[8].

إن لأراء أفلاطون القيمية علاقة وثيقة بانتمائه الطبقي والسياسي وبموقفه الإيديولوجي،فطالما حرص على مديح الحكم الأرستقراطي وعلى مناوئة الديمقراطية،وعمل على تقييد الحريات داخل المجتمع،فبالنسبة له «تؤدي زيادة الحرية إلى نقيضها العبودية وذلك حين يختار الشعب مدافعاً عنه لكنه سرعان ما ينقلب إلى طاغية»[9].

وبناء على مواقفه الإيديولوجية المناوئة للديمقراطية وعلى قوله بثبات القيم ومطلقيتها انتقد أفلاطون شعراء عصره «لأنهم أنصار حكم الديمقراطية والطغاة،ولأنهم يثيرون عواطف الجماهير»[10]

القيم المطلقة في أوربا الإقطاعية في العصر الوسيط وأبعادها الإيديولوجية

إن للعصر الوسيط خصوصياته الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تميزه بشكل حاسم عما سبقه ولحقه من فترات تاريخية «فالعصر الوسيط يتميز من الناحية الفكرية والتاريخية بازدهار التفكير الديني»[11] الذي هيمن على كل مناحي الحياة الإنسانية ،وقد كان ازدهار هذا التفكير الديني الذي شهده العصر الوسيط مرتبطاً بظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية تجلت بهيمنة فريق اجتماعي على موارد المجتمع وعلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بكل أبعادها وتفرعاتها،وقد اعتمد هذا الفريق –في فرض سيادته وهيمنته وفي إضفاء الشرعية على ممارساته– على النصوص الدينية وعلى تأويلات إيديولوجية لتلك النصوص،وقد أسهمت هذه التأويلات إسهاماً أساسياً في بناء وتشكل القيم التي نظمت العلاقات الاجتماعية،وحكمت الأفراد والجماعات في تلك الفترة.

وقد أكد توماس جولدشتاين«إن العصور الوسطى لما يقرب من ألف عام،قد أمنّت بجدية بوجود عالم ترانسدنتالي تكون فيه ظواهر العالم المنظور مجرد انعكاس بائس لحياة الدوائر الأسمى»[12]،وقد جاءت تصورات القيم وتمثلاتها خلال تلك الفترة مرتبطة بالإيمان بالعالم الترنسدنتالي المزعوم،وطالما كان هذا العالم الترنسدنتالي مرجعية ومرتكزاً إيديولوجياً للفئات المهيمنة في العصور الوسطى،والمتشكلة من تحالف نخبوي بين كبار رجال الإقطاع وكبار رجال الكنيسة،وكان هذا التحالف يعتمد فكرة التعالي في تأويل القيم،وفي بناء وتسويق الأنساق القيمية التي يخدم تنظيمها وترتيبها مصالحه ويضمن استمرار هذه المصالح.

لقد اتصف النظام الإقطاعي في أوربا العصور الوسطى بالتمايز الحاد بين مكوناته الطبقية،ولم يكن بمقدور هذا النظام أن يتشكل أو أن يحافظ على تراتبيته ويضمن استمرارها دون قيم إيديولوجية خاصة تسنده وتؤمن كل مقومات بقائه،وقد «كانت إيديولوجية النعمة الإلهية،التي أصبحت فيما بعد الحق الإلهي هي التي تكمن من وراء هذا النظام

---

[8] – المرجع نفسه ،ص43.

[9] – المرجع نفسه ،ص43.

[10] – المرجع نفسه ،ص48.

[11] – العوا،عادل،*العمدة في فلسفة القيم*،دارطلاس،دمشق،1986،ص56.

[12] – جولدشتاين،توماس،*المقدمات التاريخية للعلم الحديث* . من الأغريق القدماء حتى عصر النهضة،ت أحمد حسان عبد الواحد/سلسلة عالم المعرفة،عدد 296،الكويت،2003،ص74.

وتسبغ عليه الشرعية»[13]،فطبقاً للقيم التي تشكل قوام هذه الإيديولوجية التبريرية «كان الناس يتخذون وضعهم في الطبقات الاجتماعية نتيجة نعمة ربانية يسبغها الله عليهم أو يحرمهم منها،وادعى الملوك الحق المطلق في الحكم على هذا الأساس نفسه»[14]

لقد حقق سادة المجتمع الأوربي في العصر الوسيط نجاحات كبيرة في إخضاع المجتمع وفي إحكام قبضتهم على مقدرات هذا المجتمع وعلى أفراده من خلال الإيديولوجية التي تم نسجها وتبنيها،والتي ضمنت عبر اعتمادها على فكرة المقدس تحقيق كل مصالح وطموحات أسيادها وأسياد المجتمع الإقطاعي.

لقد بقي الناس في أوربا العصور الوسطى يجترون قيماً تكبل العقول،وتحول بين الإنسان وبين الارتقاء والتجديد،ولم تكن طبيعة العلاقات الاجتماعية ومتعلقاتها الفكرية والإيديولوجية تمكن من تطوير رؤى تقود إلى التحرر «فلم يكن ثمة متسع للملاحظة العلمية داخل رؤية العالم الوسيطة الترنسدنتالية»[15]،فالبنية الاجتماعي للعصور الوسطى،وآلية إدارة المجتمعات فيها لم تكن تساعد على القيام بملاحظات دقيقة وموضوعية،وكانت تعيق ظهور فكر نقدي مؤسس على ملاحظات مستوفية لشروط الصحة والموضوعية،وعلى مراجعات ضرورية للمسلمات؛ولم تكن النظرة القيمية السائدة في أوربا العصور الوسطى تسمح باختلاف،أو بتعدد الآراء،وقد أُعتقد على نطاق واسع أن «الملحد هو من كان لديه رأي»[16]

إن التصور الترنسدنتالي القروسطي المرتبط بظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية هيمن على طرائق تفكير الحاكمين والمحكومين في العصر الوسيط،وشكل عائقاً أمام ظهور وتطور فكر نقدي يستند على ملاحظات موضوعية،وعلى استنتاجات صائبة تقود إلى تأويلات ديناميكية للقيم،وإلى بناء قيم متحررة ومحررة تحترم إنسانية الإنسان وتستجيب لاحتياجات التطور والتقدم.

ولقد كان للقيم القروسطية المرتبطة بالإقرار بوجود عالم ترانسدنتالي خصائص مميزة

فالقيم القروسطية هي قيم ثابتة ومطلقة وإلهية لأن الأفكار والقيم والأحكام ترتبط هناك بالإشراقات الإلهية وبالقيم المطلقة التي تعبر عنها،فها هو ايتين جلسون يتحدث عن أوغسطين –الذي كان قائد رأي ومنظراً قيمياً في عصره– قائلاً: إن «كل حكم صادق في نظرية أوغسطين يفترض إشراقة طبيعية من الله على الذهن»[17].

فليست الأفكار ولا القيم والأعمال التي ترتبط بها تتم بمعزل عن العناية الإلهية والإرادة الإلهية التي تلقي بظلالها على العالم وترسم معالمه الأساسية ومسارات حركاته.

إن القيم القروسطية ترتبط بفكرة العناية الإلهية وبما تنطوي عليه من قدرة تنظيمية ومن محبة وحكمة.

وهذه المحبة –حسب الفهم القروسطي– تمتد إلى الكون بأسره وتشمل كل مخلوقاته دون استثناء فإنك حسب النسق القيمي السائد في العصر الوسيط كما يوضح ايتن جلسون «لن تجد عصفوراً واحداً لا تمتد إليه العناية الإلهية وإذا كان ذلك يقال على الطيور فماذا نقول عن الإنسان»[18]

---

[13] – روز،ستيفن وأخرون،*علم الأحياء والإيديولوجية والطبيعة البشرية*،ترجمة د.مصطفى ابراهيم فهمي،سلسلة عالم المعرفة148،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،أبريل 1990،ص54.

[14] – المرجع نفسه ،ص54.

[15] – جولدشتاين،توماس مرجع سابق،ص74.

[16] – هازار،بول،*أزمة الضمير الأوربي*،ترجمة جودت عثمان ومحمد نجيب المستكاوي،وزارة الثقافة،دمشق،2004،ص233.

[17] – جلسون،ايتين،*روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط*،ت أ.د.إمام عبد الفتاح إمام،مكتبة مدبولي،ط3،مصر،1996،ص191.

[18] – المرجع نفسه،ص207.

إن العناية الإلهية التي تعتبر أكمل تعبير عن القيم المطلقة الثابتة هي التي تنظم الكون وتتدخل فيه في الوقت المناسب وبالشكل المناسب.

إن فكرة العناية الإلهية التي تختزن القيم المطلقة وتعبر عنها هي الفكرة التي حرص رجال الكنيسة المتواطئون مع رجال الإقطاع في العصور الوسطى على ترويجها وعلى إشباع الأذهان بمضامينها على نحو يسهم في تكريس الواقع التراتبي الذي كان سائداً آنذاك.

إن هذه الفكرة(فكرة العناية) قُدمت وسُوقت على أنها اختزان لقيم وتوظيف لها لصالح الإنسان،لكن الطريقة التي سُوقت بها هذه الفكرة من قبل رجال الكنيسة ساهمت في تفشي الاتكالية والكسل،فعطلت الطاقات والإمكانات وقتلت إرادة التغيير والتطوير وعملت بذلك على تكريس واقع قائم يخدم طبقات مهيمنة.

إن فكرة العناية الإلهية على النحو الذي قدمها به سدنة الكنيسة في العصور الوسطى وعلى النحو الذي فهمها به الإنسان القروسطي انعكست بوصفها تعبيراً عن قيم إلهية مطلقة في قيم الأفراد وفي سلوكهم ولعبت دوراً في تحديد شكل الإنجازات ومستويات التطور في العصور الوسطى.

لقد اعتقد منظرو الإيديولوجية الرسمية في أوربا العصور الوسطى أن القيم تحتاج إلى أساس راسخ وإلى يقين ثابت،وكامل لا يتغير،ولا يتزعزع،وبالنسبة لهؤلاء هناك «يقين كامل مادام إلهياً،وبالتالي فهو متين لا يتغير،ولو أنه يقبل التغير لما كان يقيناً»[19]،فالله هو الضامن لصحة وثبات يقيننا،وهو الضامن لكفاءة وسلامة القيم الثابتة التي ترتكز على فكرة العناية الإلهية،وعلى الحقائق الإلهية،وهو الضامن لكل يقين يرتبط بهذه الحقائق ويؤسس عليها....ولكن من الذي سيحدد صحة ارتباط يقين ما بالحقائق الإلهية،أوبفكرة العناية الإلهية؟؟ هل هو خارج مؤسسة الكنيسة؟؟ وهل سيتصف تحديده بالصحة وبالموضوعية.

لقد أكد منظرو الإيديولوجية الرسمية في أوربا العصور الوسطى من كنسيين وإقطاعيين على وحدة وثبات،وألوهية اليقين الذي يجب أن ترتكز إليه القيم،ويؤسس عليه السلوك،وقالوا:إن من «واجب المرء أن يتمشى مع هذا اليقين الوحيد المتين؛لأنه بديهي أن الموضوع الواحد لا يمكن أن يكون محل مليون يقين أو ألف،أومئة،أو عشرة،أواثنين،بل يقين واحد»[20]

إن فكرة العناية الإلهية كما بلورها وعبر عنها تحالف رجال الإقطاع والكنيسة شكلت جزءاً أساسياً من المنظومة القيمية لإيديولوجيا الطبقة المهيمنة في العصور الوسطى في أوربا،وقد لعبت دوراً كبيراً في تماسك هذه الإيديولوجية وفي تحقيقها لمأربها،فبالاستناد إلى فكرة العناية الإلهية وإلى ما تنطوي عليه من حكمة وقداسة ومن قدرة تنظيمية فائقة تمت المحافظة على التفاوت الطبقي الهائل والظلم الاجتماعي الكبير باعتبارهما تعبيراً عن حكمة وعناية إلهية لا يدركها البشر وقد اعتبر العقل الإيديولوجي القروسطي أن مجرد التساؤل عن شرعية التراتبية الاجتماعية أو التفكير في طبيعتها وفي إمكان تجاوزها يعتبر شكلاً مقيتاً من أشكال الكفر والتجديف على الله،فلم يكن الفكر القيمي القروسطي المؤسس على فكرة العناية بما تتضمنه من قداسة وحكمة «يجيز أي تغيير اجتماعياً كان أم طبيعياً،وكما أن الأفلاك السماوية ثابتة،فإن النظام الاجتماعي أيضاً ثابت،فالناس يعرفون مواضعهم،وهم يولدون ويعيشون فيها،وهذا أمر

[19] – هازار،بول،مرجع سابق ،ص233.

[20] – هازار،بول،مرجع سابق ،ص233.

طبيعي،مثل الطبيعة نفسها،التي لا تتغير في خطوطها الكبرى وإن كانت في تغير أبدي على المستوى الدنيوي اليومي»[21]

إن قيم العصر الوسيط أنتجت تخلفاً وكرست واقعاً مريضاً يعشش فيه الإذعان والقلق والخوف والإحساس بالعجز والقصور وضعف الإنجاز والاستسلام للقدر.

لقد بقيت هذه القيم طيلة العصر الوسيط تجتر نفسها وتعطل كل إبداع وكل نزوع إلى التغيير والتجديد.

إن منظومات الأوامر والنواهي التي عبرت عن القيم القروسطية التي قُدمت على أنها قيم مطلقة أسرت بسلطتها وبطبيعتها المقدسة العقول وحجرت على نشاطاتها وعطلت كل محاولة للتفكير المستقل والبناء.

إن الصبر على الألم والاستسلام للأوامر والسعي لإرضاء الكاهن(سادن القيم)والخضوع الكامل له والإقرار بوساطته وبسلطته من الأمور التي اعتبرت أطراً لقيم الحق والخير والجمال،ووسائل لتعينها وممارستها لأدوارها؛ كما اعتبرت هي ذاتها قيماً أساسية وضرورية وواجبة الطاعة والإجلال .

لقد مُورست الوصاية من خلال القيم الإيديولوجية ذات الطبيعة الدينية على إنسان العصر الوسيط عبر مجموعات من الأوامر والنواهي المرتبطة بتلك القيم والمؤسسة على مضامينها.

وقد ارتبطت قيم العصر الوسيط ارتباطاً وثيقاً بفكرة المقدس كما قدمتها وروجتها المؤسسة الكنسية المرتبطة بتراتبية النظام الإقطاعي،والحاصلة على امتيازات كبيرة في ظل هذا النظام،وإذا كانت فكرة المقدس قد برزت في سياق الفكر الأسطوري السابق للتفكير الفلسفي،وعرفت لدى اليونانيين في عصر الفلسفة،فإنها قد احتلت موقعاً مختلفاً واكتسبت دلالات أخرى في سياق التفكير القيمي في العصر الوسيط،فلقد «كان العصر القديم يخضع المقدس لحياة المدينة،في حين أخضع العصر الوسيط الغربي المدينة للمقدس»[22]. فقد أصبح المقدس الموجود خارج الزمان والمكان وفوق النقد منبعاً لقيم العصور الوسطى في أوربا ومستنداً لها؛كما اتضح من خلال الطبيعة القيمية للإيديولوجية الإقطاعية ذات الصبغة الدينية في العصر الوسيط،«فالعصر الوسيط من أوغسطين إلى توما الإكويني،هو الذي أخضع المدينة الأرضية لطوباويات المدينة السماوية»[23]،كما يعتقد فرانسوا شاتيليه؛فالكنيسة التي مارست دور الوسيط بين الإنسان والعالم الأعلى هي التي حددت ما يندرج تحت قيم الحق والخير والجمال من أفعال ومواقف ووقائع وأشياء،وقد اعتبرت نفسها واعتبرها الآخرون المرجعية الأرضية المرتبطة بالمرجعية السماوية التي تؤسس عليها الأحكام،وتوصي بما يجب أن يفعل وبما يجب أن يجتنب، والكنيسة كانت تؤكد دائما أنها سادنة القيم وحاميتها،وأن المملكة الحقيقة بالنسبة للمسيحية ليست على الأرض بل في السماء.

نقد القيم القروسطية

إن التوظيف الإيديولوجي لفكرة المقدس مكّن من إنتاج وتسويق قيم إيديولوجية تتصف بالثبات وبالقوة الاستثنائية التي تمكنها من أداء ما هو مطلوب منها،ومن الاستمرار في هذا الأداء بعيداً عن كل أشكال النقد التي يمكن أن تتعرض لها القيم الأرضية المؤسسة على مرجعيات نسبية بعيدة عن التقديس.

إن ديدرو الذي فهم متطلبات عصر النهضة وأدرك الخطر الذي تمثله القيم الدغمائية المتحجرة التي يسوقها رجال الدين على العقل الإنساني وعلى قدرته على إنتاج قيم تعبر عن الإنسان وتعينه على التفاعل مع الواقع على نحو

---

[21] – روز،ستيفن وأخرون،مرجع سابق،ص54.

[22] – شاتيليه،فرانسوا،*تاريخ الإيديولوجيات* ج2،ت أنطون حمصي،وزارة الثقافة،دمشق،1997،ص22.

[23] – المرجع نفسه،ص22.

سليم يقول: واصفاً رؤيته ومحذراً من انتكاسة قد تحصل «إن لدي نوراً واهياً ضعيفاً ينير الطريق أمامي وسط ظلمات غابة الحياة الكثيفة،ولكن ما هي إلا أن يظهر في الأفق عالم لاهوتي حتى يتبدد أمام ناظري أخر خيط من نور»[24]،وبهذا القول يبين ديدرو حجم الخطر الذي تمثله القيم المطلقة والبالية التي يعمل اللاهوتيون على فرضها وتعميمها لتكبل العقل وتعيق إمكانات النهوض.

لقد كان مفهوم الخطيئة حاضراً في الأنساق القيمية التي عرفتها أوربا الإقطاعية في العصور الوسطى،وقد شكل هذا المفهوم من خلال حضوره في القيم الإقطاعية القروسطية ومن خلال تأثيره على الفكر والسلوك المؤسسين على تلك القيم كابحاً للتطور وعائقاً أمام تفتح الكثير من المواهب وملكات الإبداع،فطالما بدد الإحساس بالذنب ومساعي التكفير طاقات كان من الممكن أن توظف في إبداعات ونشاطات،وفي أفعال تنموية تنعكس خيراً بل خيرات على الإنسانية أفراداً وجماعات،ومع بروز وتطور النشاطات العلمية والمعرفية المرتبطة بظهور البرجوازية والتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي رافقتها أخذت دلالات وتأثيرات مفهوم الخطيئة كما عُرف سابقاً تتبدل،وبدأنا نلحظ اتجاه «معنى الخطيئة نحو التلاشي مع تقدم المستوى العلمي لدى الشبيبة»[25]فقد ساعدت الإنجازات العلمية وتطبيقاتها واحتياجات البرجوازية إلى نتائج تطبيقاتها إلى تطوير أدوات النقد عند الإنسان،وإلى تحرره من كثير من المفاهيم الفكرية المختزنة للأوهام والمعيقة للتطور.

إن المؤسسات المهيمنة في أوربا العصور الوسطى قد أحكمت قبضتها على خيرات الطبيعة وعلى المجتمع،وسيطرت على عقول الناس من خلال تأويلاتها لمضامين دينية،ومن خلال فرضها لقيم أضفت عليها طابع القداسة،وحمتها من الانتقادات المحتملة.

إن القيم الدينية التي راجت في العصور الوسطى،وهيمنت على عقول الناس وعلى سلوكاتهم،وامتدت إلى مابعد العصور الوسطى؛خلقت حالات من الخنوع والهوس بالقيم الدينية وبالنصوص المقدسة التي تستند إليها،فرغم أن «بوسويه قد حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ومع ذلك فهو لا يكف عن قراءته»[26] وكان كثير من القروسطيين يشاركون بوسويه هذا الهوس،وهذا السلوك،وكان لهذه الأشكال من الاعتقادات القيمية والممارسات السلوكية أبعاد إيديولوجية ووظائف سياسية،تصب في خدمة فكرة الحق الإلهي المقدس في الحكم،وفي خدمة المستفيدين من هذه الفكرة،وقد كان بوسويه من أشد المدافعين عن نظرية الحق الإلهي المقدس للملوك في حكم شعوبهم،وقد تصدى انسجاماً مع معتقداته وقيمه ووظيفته الإيديولوجية لكل فكر أو سلوك يناقض القيم الدينية،ويفضي بالتالي إلى تهديد ما يستند إليها من تبريرات لممارسات سياسية،وانسجاماً مع قيمه ودوره كان «بوسويه يفكر في الخراب الذي يستطيع إله اسبينوزا أن يولده في الضمائر المسيحية،ومن أجل هذه الضمائر فهو يرتعد من هذا الإله»[27] وغير خاف أن آراء اسبينوزا في الإلوهية وتصوراته لفكرة الإله،ولما يرتبط بها تعتبر محفزات لاستنهاض طاقات الإنسان،ولتحريره من نير السلطات التي تجد في اللاهوت،وفي قراءات إيديولوجية مغلقة لمضامينه عناصر قوتها ومبررات وجودها.

---

[24] – ابراهيم،زكريا،مرجع سابق،ص150.

[25] – بودون،ريمون، *أبحاث في النظرية العامة في العقلانية – العمل الاجتماعي والحس المشترك*،ترجمة الدكتور جورج سليمان،المنظمة العربية للترجمة،مركز دراسات الوحدة العربية،طبعة أولى،بيروت،2010،ص302.

[26] – هازار،بول،مرجع سابق ،ص233.

[27] هازار،بول،مرجع سابق ،ص248.

إن ثبات ومطلقية القيم في أوربا العصور الوسطى ارتبط تأثراً وتأثيراً بثبات العلاقات الاجتماعية،وبالاعتقاد بثبات العالم،وبثبات ومطلقية حقائقه،فقد اعتقد القروسطيون بوجود «عالم ثابت من العلاقات الاجتماعية التي تكتسب شرعيتها من الله،وهو عالم يعكس النظرة السائدة التي تنظر إلى العالم الطبيعي على أنه هو نفسه عالم ثابت»[28] وهذا الثبات في العلاقات الاجتماعية وفي العالم الطبيعي ارتبط بفكرة المطلق المؤسسة على فكرة القداسة ذات الأبعاد الإيديولوجية التي وضعت حدوداً لتطور التفكير والمعارف.

قراءة نقدية للقيم المطلقة بشكل عام

إن القائلين بالقيم المطلقة يعملون على إخراج القيم الإنسانية من حركيتها وديناميتها،ومن سياقها التاريخي المرتبط بتقلبات الظروف وتقلبات الحياة الإنسانية،ويعملون على وضعها في قوالب جامدة متحجرة،وبذا يقومون بإفقارها وبالحول دون تجددها وإغتنائها بالخبرات والتجارب،وكثيراً ما يكون هذا التجميد شكلاً من أشكال التعبير عن الكسل،وشكلاً من أشكال الخوف من التجديد علاوة على دوره في إعلاء مصالح فئوية على المصالح الإنسانية العامة.

إن القيم المطلقة هي قيود تكبل العقل الإنساني،وتعطل الكثير من طاقاته،أو تعمل على توظيف هذه الطاقات في نشاطات تستنزف قدراته وإمكاناته،ولا تصب في صالحه.

إن من مصلحة كل مستبد في التاريخ أن يروج لقيم مطلقة،فطالما كان القول بالقيم المطلقة أحد ركائز تبرير الاستبداد وشرعنته،وأحد أدوات حمايته وتثبيته،وبذا يكون القول بثبات القيم وبمطلقيتها بما يرتكز عليه وبما يؤسس له ويقود إليه –كما تبدى تاريخياً– أحد أخطر أشكال الاعتداء على كرامة الإنسان وعلى أصالته وإنسانيته.

إن القيم المطلقة على النحو الذي كانت سائدة عليه في المجتمعات الاستبدادية المغلفة بإيديولوجية دينية كما هو حال النظام الإقطاعي في أوربا في العصر الوسيط،وكما هو حال السلطنة العثمانية البائدة؛إن هذه القيم بصيغتها المطلقة التي كانت سائدة في هذه المجتمعات كانت قيماً تقلل في معظم المواقف الخيارات أمام الإنسان أو تعدم هذه الخيارات،وتفرض خياراً مناسباً للمقدس وللقيم المطلقة أو بالأحرى مناسباً لمصالح المستبد الذي نسج قيماً محملة بمصالحه،وغلفها بلبوس مقدس ليحول دون نقدها وليزيد من قوتها وفعاليتها وليضمن اضطلاعها بدورها في خدمة مصالحه.

إن القيم هي مفاهيم فكرية تنطوي على معارف وخبرات إنسانية متراكمة،وتنطوي على مصالح إيديولوجية،ومن طبيعة القيم أنها تمتلك سلطة ناعمة تُنظم من خلالها علاقة الإنسان بذاته،وعلاقته بالأخر المتشابه وبالأخر المختلف؛كما تنظم علاقة الإنسان بماضيه وبحاضره وبمستقبله؛كذلك علاقته بالبيئتين الطبيعية والاجتماعية،وبكل مستجدات وتحديات عصره،وبما أن هذه الأمور التي ترتبط بالقيم وتضطلع القيم بتنظيمها هي أمور متغيرة،فلا بد أن تكون القيم ذات طبيعة ديناميكية أي تكون نسبية وليست مطلقة كي تستطيع الاضطلاع بأدوارها على نحو يعزز من نجاحات الإنسان ويخفف من أزماته،ويفتح الطريق واسعاً أمام تطوره وارتقائه.

فإذا كان الإنسان متغيراً من حيث نضجه ومن حيث مهاراته ومعارفه وإنجازاته وأنماط حياته،وإذا كنت ظروفه كذلك متغيرة،فلا بد أن تكون القيم التي تنظم حياته وعلاقته بظروفه المختلفة متغيرة بالضرورة أي نسبية وليست مطلقة.

إن القول بأن هناك اعترافاً بقيم الخير والحق والعدالة والحرية وغيرها من القيم في كل المجتمعات الإنسانية المتقاربة والمتباعدة زمانياً ومكانياً كما يزعم القائلون بثبات القيم ومطلقيتها،لا يعني أن هناك قيماً مطلقة،بل يعني ضمن ما يعني أن ألفاظ الخير والحق والعدالة والحرية وغيرها مما يسمى قيماً هي ألفاظ كلية ومفاهيم مجردة صاغتها الخبرة

---

28 – روز،ستيفن،مرجع سابق،ص54.

الإنسانية بطرائق التجريد والتعميم الفكريين لتضطلع بأدوار هامة في تنظيم التفكير الإنساني وفي توجيه السلوك وتنظيم الحياة الفردية والاجتماعية؛لكنها رغم عموميتها تمتلك عند كل مستخدم دلالة خاصة ترتبط بمصالحه وبمستوى معارفه وعى ذلك أم لم يعه.

إن القول بالقيم المطلقة يرتبط بأوهام فكرية وبنوع من التفكير الرغبي أكثر من ارتباطه باستقصاءات تجريبية وبتحليلات علمية ومنطقية رصينة،وهو قول يعكس في جانب منه شكلاً من أشكال غياب أو قصور الحس النقدي لدى أصحاب القول بمطلقية القيم،ويعكس في جانب أخر دفاعاً خفياً عن مصالح إنسانية محددة يتمثل بعضها في رغبة في التخلص من التوتر والقلق سعياً للحصول على الراحة النفسية،والوقوف على أرض صلبة يوفرها الاتكاء على المطلق بما يوفره،وبما ينطوي عليه من قوة وثبات.

ويتمثل بعضها الأخر في رغبات ومساعي أصحاب الامتيازات في كل عصر للدفاع عن امتيازاتهم والحفاظ عليها وتكثيرها.

إن إنتاج وتبني الآراء المنادية بمطلقية القيم هو نوع من الشطحات الفكرية المرتبطة باعتلال وقصور معرفي من جهة وبمصالح إيديولوجية محافظة من جهة أخرى،وإذا كان هناك من يتمسك بثبات القيم ومطلقيتها ويؤكد: «أن المبادئ الأخلاقية ثابتة لا تتغير وهي مطلقة وليست نسبية وأن تلك المبادئ تغلفها كثرة كثيرة من القشور السطحية»[29] فإننا نؤكد أن هذه المبادئ هي معان صورية تخضع لتأويلات تحكمها مستويات وأشكال مختلفة من المعرفة وأنماط مختلفة من الإيديولوجية تنتزعها من ثباتها الصوري ومطلقيتها الزائفة،وتحولها إلى قيم نسبية ترتبط باحتياجات عصرها وتضطلع بأدوار هامة في تأمين متطلباته.

إن الإصرار على مطلقية القيم ينطوي على مسعى خفي لتثبيت الواقع وتجميده،وسوف يوصل هذا المسعى عندما يأخذ مداه ويُدفع إلى نهايته إلى تجميد العقل وتعطيل الإبداع واجترار الجهل والتخلف علاوة على تأسيسه لمشكلات اجتماعية خطيرة ولأزمات معقدة ومركبة تسيء لاجتماعية الإنسان وتحط من إنسانيته.

إن مطلب المطلقية في القيم،والبطء الشديد وغير المنظور –لمن يفتقد إلى النقد الفلسفي والتاريخي– في تغيرها يجعلنا نعتقد في كثر من الأحيان بثبات القيم وبلا تاريخيتها،وبعلوها على الزمان والمكان،وباستعصائها على التغير،لكن هذا لا يوضح إلا جانبا من اللوحة لأن القول بثبات القيم وبمطلقيتها موقف يعكس في جانب منه قصوراً معرفياً وفكراً تجزيئياً،ويعكس في جانب أخر مصالح إيديولوجية وفكراً إيديولوجياً يريد تثبت الواقع المنتفع منه الذي تنظمه وتضمن استمراريته قيم معينة يلبسها الإيديولوجي لبوس الإطلاق وينعتها بالثبات رغبة منه في تثبيت الواقع الذي يحقق مآربه ويضمن مصالحه.

لقد ارتبط وجود ورواج القيم المطلقة تاريخياً بإيديولوجيات محافظة سعت من خلال قيمها التي ألبستها لبوساً مطلقاً إلى تكريس وتثبيت واقع يخدم مصالح أصحابها،وقد كانت القيم المطلقة أدوات تستعمل في الحروب الإيديولوجية،ويتم من خلالها تحقيق مكاسب فئوية على حساب الحقيقة والموضوعية،وعلى حساب إنسانية الإنسان.

إن فكرة المطلق كما تتجلى في القيم تجافي حقائق العلم والوقائع،ولكنها تؤسس لتعزيز مواقع ولخدمة مصالح،وقد أكد كارل مانهايم أن «المطلق الآن أداة تستعمل من قبل أولئك الذين يستثمرونه ويستغلونه ليكسبوا الأرباح

---

[29] – إمام،عبد الفتاح إمام،*أفكار ومواقف*،مكتبة مدبولي،القاهرة،1996،ص402.

منه.ليشوهوا ويحرفوا ويزيفوا ويخفوا معنى الحاضر »[30] طالما كان التحريف والتزييف والإخفاق يخدم أغراضهم الإيديولوجية،ويصب في مصلحتهم.

لقد احتل مفهوم المطلق مكانة مرموقة في فلسفة أفلاطون،ولعب دوراً كبيراً في بلورة مثله وقيمه،وفي التعبير عنها،وكذلك الحال في النسق القيمي المهيمن في أوربا العصور الوسطى،فقد تشكل هذا النسق وعبر عن نفسه بالاستناد إلى فكرة المطلق التي اختزنت في نشأتها وفي أشكال التعبير عنها أبعاداً إيديولوجية ومصالح طبقية،وقد توصل كارل مانهايم إلى الأبعاد الإيديولوجية لفكرة المطلق،وإلى أخطارها على الماضي والحاضر والمستقبل،وأكد أن «من المفجع حقاً أن نكتشف في مأزقنا العقلي والاجتماعي المعاصر بأن أولئك الذين يدعون بأنهم وجدوا المطلق هم عادة نفس الأشخاص الذين يدعون أيضاً بأنهم أرفع منزلة وأعلى شأناً من الأخرين»[31] وهؤلاء يشكلون بأطروحاتهم إساءة لإنسانية الإنسان وتهديداً لأمن وسلم المجتمعات؛إنهم بكل بساطة مؤسسو التطرف وأساتذته وسدنته وحماته ورعاته وداعموه.

إن فكرة المطلق بما تؤسس له من قيم وبما تحدثه من تأثيرات تعبر عن مصالح فئوية،وعن إيديولوجيات محافظة تسعى لتكرس وتثبيت واقع يخدمها ويحقق مصالح أصحابها،وقد أحسن كارل مانهايم ربط فكرة المطلق المؤسسة للقيم المطلقة بجذورها الاجتماعية فقال : «إن الشخص الذي يسعى باحثاً عن المطلق الثابت ليس رجل التنفيذ والعمل،وإنما ذلك الشخص الذي يرغب في حمل الآخرين على الحفاظ بالوضع القائم والتمسك به،لأنه يشعر براحة باله وبغروره في ظل تلك الظروف»[32] وهذا الشخص بالتأكيد هو الشخص الذي يحصل على مكانة استثنائية لا تتحصل لغيره،ولا يريد أن يفقدها بل يرغب بتأبيدها وبتأبيد تلك الظروف التي أوجدتها.

إن الإيديولوجيات التضليلية السائدة والمهيمنة في مجتمعها،والتي تتبنى مواقف محافظة بسبب هيمنتها تعمل بشكل أساسي –من خلال دفاعها عن مصالح من تمثلهم– على إنتاج قيم مطلقة تضفي طابعاً سكونياً على الواقع، وتعمل على تثبيت هذا الواقع،وتساعد في تعطيل التغيرات المحتملة التي يمكن أن تطرأ على ركائزه الأساسية، وهي في مساعيها لتثبيت العلاقات الاجتماعية،وتثبيت الواقع الاجتماعي بكل بأبعاده تؤكد ثبات الطبيعة الإنسانية، وعدم تغيرها،وقد تنبه إلى هذا هربرت شلر،وأكد «أن الطبيعة الإنسانية عند مضللي العقول ثابتة لا تتغير، وكذلك الحال بالنسبة للعالم»[33]،وطالما حرص هؤلاء الإيديولوجيون المضللون–في عصر انتصار العلم– على إضفاء الصبغة العلمية على أطروحاتهم الإيديولوجية،وعلى قيمهم المطلقة المرتبطة بتلك الأطروحات من خلال تقديم براهين –إيديولوجية ترتدي لبوساً علمياً– على ثبات العالم،وثبات الطبيعة الإنسانية،وهذا دون شك يسهم إسهاماً كبيراً في تكريس الواقع القائم،و يؤخر أو يقلل من فرص واحتمالات تغييره،وهو قبل هذا وذاك يجافي معطيات وحقائق الواقع ودروس التاريخ وعبره.

إن الدغمائيات المغلقة تتسلح بفكرة المطلق،وهي بما تستند إليه وبما تحمله من قيم مطلقة تعتبر عائقاً أمام امتلاك معرفة موضوعة بالواقع؛كما تعتبر عائقاً أمام تحقيق استخدام صحيح لإمكانات الإنسان ولخيرات الطبيعة،وعائقاً

---

[30] – مانهايم،كارل،*الإيديولوجية واليوتوبيا*،ترجمة عبد الجليل الطاهر،مكتبة بغداد،1968،ص168.

[31] – المرجع نفسه،ص167.

[32] – المرجع نفسه ،ص167.

[33] – شلر،هربرت،*المتلاعبون بالعقول*،ترجمة عبد السلام الرضوان،سلسلة عالم المعرفة 106،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،مارس 1999،ص21.

أمام تحقيق إنجازات حضارية تحترم إنسانية الإنسان،وتعلي من شأنه قولاً وفعلاً؛وقد انتقد كارل مانهايم طرائق التفكير المغلقة والقيم المطلقة،وأكد «أن التردد وعدم اليقين هما اللذان يقوداننا ويقربانا من الواقع أكثر مما كان ممكناً في الماضي الذي أمن بالمطلق إيماناً أعمى»[34] فالتردد وعدم اليقين يدفعان إلى التمحيص وإلى العمل سعياً إلى اكتشاف أسرار الواقع وامتلاك حقائق تمكن من تطوير الإنسان والواقع في آن معاً؛بينما تدفع الوثوقية المؤسسة على النظرة المطلقة للقيم إلى تعطيل كل المساعي البحثية،إلى اجهاض كل المبادرات التطويرية.

إن الخلافات حول طبيعة القيم ليست مجرد خلافات فكرية فللقول بنسبية القيم أو بمطلقيتها علاقة وثيقة بالصراعات الاجتماعية،وبالتنافس على الامتيازات والمصالح.

إن كل فريق اجتماعي سعى إلى إضفاء الطابع المطلق على القيم السائدة في مجتمعه إذا كانت هذه القيم بما تمثله وبما تقود إليه منسجمة مع مصالحه،ومساعدة على تحقيقها؛وبالمقابل نرى أن الفريق المتضرر من القيم السائدة في مجتمعه يميل إلى القول بنسبية القيم ليمنح نفسه شرعية مقاومة تلك القيم وليتمكن من استبدالها وتغييرها ليحل محلها قيماً تخدم مصالحه وتستجب لطموحاته.

يعتقد الدكتور زكريا ابراهيم أن الخلافات حول نسبية ومطلقيتها تعود إلى وجود «خلط مستمر في أذهان الكثيرين بين مبادئ الأخلاق من جهة وأساليب السلوك من جهة أخرى،مما أدى إلى عجز البعض منهم عن التمييز بين المبادئ القصوى الثابتة من جهة والقواعد النسبية المتغيرة من جهة أخرى»[35].

وأنا أعتقد أن ما ذهب إليه الدكتور زكريا ابراهيم لا يمثل إلا جانباً من المسألة،ولا يصلح لتفسير الخلافات بين النظرة النسبية والنظرة المطلقة للقيم،فالدكتور زكريا ابراهيم يركز على البعد المعرفي لتفسير الخلافات بين القائلين بنسبية القيم وبين القائلين بمطلقيتها،وهذا غير كاف على ما نرى لأن لهذه الخلافات أبعاداً إيديولوجية عميقة لا يجوز إغفالها،فقد كان أصحاب القيم المطلقة أو المنادون بمطلقية القيم عبر التاريخ هم أصحاب الاتجاهات الإيديولوجية المحافظة الذين يسعون إلى تثبيت الأحوال التي تخدم مصالحهم من خلال تأكيدهم على ثبات القيم ومطلقيتها،أما أصحاب النظرة النسبية إلى القيم أو القائلين بنسبية القيم فقد كانوا يخفون وراء أطروحاتهم عناصر إيديولوجية (تقدمية في معظمها) تعبر عن رغبتهم في تغيير الأوضاع القائمة وتطويرها لتكون أكثر إنسانية وأكثر ملائمة لمصالحهم.

إنني أعتقد أن من يقول بمطلقية القيم ويؤكد وجود «قوانين أخلاقية مطلقة تكمن من وراء شتى المواضعات الاجتماعية المتغيرة»[36] لا يؤسس قناعاته ومواقفه على عناصر معرفية فقط لأن رائحة الإيديولوجية تشتم من كل رأي من آرائه ومن كل موقف من مواقفه القيمية،فالإيديولوجية حاضرة في أمثال هذه الآراء والمواقف سواء أكان هذا الحضور شعورياً أم لاشعورياً.

إن أصحاب النظرة المطلقة للقيم يؤكدون: «أن للقيم وجودها الخاص في استقلال تام عن تقييماتنا الخاصة،بدليل بدليل أنها تفرض نفسها على كل وجدان بشري بطريقة أولية حدسية»[37]كما يعتقد ماكس شلر ونيقولاي هارتمان،ولكننا نتساءل هنا ألا يمكن أن تكون القيم نسبية ومتغيرة وتدرك من قبل الفرد إدراكاً حدسياً يبدو أولياً بسبب رسوخ القيم المتشكلة تجريبياً في العقل الجمعي للمجتمع؟ وفي العقل الباطن للفرد؟ أليست المطلقية مطلباً لكل مسعى

---

[34] – مانهايم،كارل،مرجع سابق ،ص163.

[35] – ابراهيم،زكريا،*المشكلة الخلقية*،مكتبة مصر،القاهرة،د.ت،ص63.

[36] – ابراهيم،زكريا،*المشكلة الخلقية*،مكتبة مصر،القاهرة،د.ت،ص64.

[37] – ابراهيم،زكريا،المرجع نفسه،ص76.

قيمي؟ ألا تبدو القيم الفاعلة أثناء فعاليتها مطلقة في مجالها الخاص وفي أذهان أصحابها؟ ألا تشير قراءة التاريخ وإدراك الاختلافات والفروقات في التوجهات وفي أنماط السلوك إلى وجود اختلافات قيمية تقف وراء الاختلافات في التوجهات والمواقف وأنماط السلوك؟ ألا تشير الاختلافات في التوجهات إلى نسبية القيم المؤسسة لتلك الاختلافات؟

إن الذي يندفع إلى سلوك محدد مسترشداً بقيمة محددة وساعياً إلى تطبيق توصياتها ينطلق من إيمان راسخ بصحة وثبات وصلاحية هذه القيم سواء أكان هذا الإيمان واضحاً أم مضمراً؛ولا يمكن أن يندفع الإنسان بحرية إلى تنفيذ مضامين قيم لا يؤمن بصحتها وثباتها بل بمطلقيتها عند الفعل..

إن الإنسان الذي يكون بصدد السلوك على نحو محدد وهو يتشكك بثبات وصلاحية القيم المؤسسة لهذا السلوك،فإنه لا يلبث أن يجري مراجعات ومقارنات،وعندما لا تتشكل لديه قناعة كافية بصحة المرجعية القيمية للسلوك الذي كان يزمع القيام به،فإنه ينصرف عن هذا السلوك إذا كان سلوكه سلوكاً قيمياً ينطوي على الحرية والتبصر العقلي.

إن القائل بمطلقية القيم وإن ارتكز على نوع معين من المعارف وحاول من خلالها أن يسوغ أقواله ومواقفه،فإنه يقوم بتأويل تلك المعارف بمقتضى مصالحه الإيديولوجية،وتضطلع عملية التأويل تلك بدور بناء وشرعنة القيم في آن معاً.

إن الأساس الإيديولوجي للقول بمطلقية القيم هو أساس محافظ يعكس الرغبات في الحفاظ على امتيازات ومصالح فئات ترافق اكتسابها لامتيازاتها بفهم معين للقيم وتراتبية محددة لها.

نقد الأساس المقدس للقيم المطلقة

لقد تم توظيف الدين ببعده المقدس توظيفاً إيديولوجياً لتعزيز مواقف ومصالح إيديولوجية في أماكن مختلفة وفي فترات تاريخية مختلفة أبرزها التوظيف الذي شهدته أوربا في ظل الإيديولوجية الإقطاعية في العصر الوسيط.

ففي المنظومة القيمة لإيديولوجية النظام الإقطاعي في أوربا العصور الوسطى ساد اعتقاد مفاده أن «الله يحكم البشر عن طريق البابا والإمبراطور»[38] وبالاستناد إلى هذا الاعتقاد تمكن تحالف السلطة المهيمن على المجتمع الأوربي القروسطي من تبرير هيمنته ومن الاستمرار في هذه الهيمنة.

وطالما تصدى إيديولوجيو السلطة القروسطية لبوادر أي انتقاد للسلطة التي يمثلونها حتى قبل أن يتبلور هذا الانتقاد مروجين «أن السلطة ليست مقدسة في ذاتها،بل لأنها في خدمة الله»[39] وهذا كاف لإعطائها الحصانة التي تحميها وتجهض أي مسعى للنيل منها مهما كان حجم هذا المسعى في ظل سيادة النسق القيمي لإيديولوجية النظام الإقطاعي القروسطي الذي تم بناؤه وتغليفه بالقداسة ليكون بمنأى عن أي انتقاد يهدد بنيانه ويهدد بالتالي مصالح الفئات المهيمنة على المجتمع الأوربي القروسطي التي تقف خلفه.

وقد اعتبر التوظيف الإيديولوجي القروسطي الإقطاعي لفكرة المقدس نموذجاً ومثالاً توضح من خلاله الأبعاد الإيديولوجية لفكرة المقدس ولما يؤسس عليها من قيم ومن أنساق قيمية.

لقد أسهمت فكرة المقدس بما بني عليها وبما استنبط منها من قيم ومعايير في تثبيت الواقع التراتبي لأطول فترة ممكنة في أوربا العصر الوسيط،وطالما أعاقت القيم المؤسسة على هذه الفكرة وخنقت في المهد كل بوادر التمرد ومساعي التغير القيمي والاجتماعي والسياسي.

---

[38] – شاتيليه،فرانسوا،*تاريخ الإيديولوجيات*،ج2،ترجمة انطون حمصي،وزارة الثقافة،دمشق،1997،ص27.

[39] – المرجع نفسه،ص24.

لقد كانت هذه الفكرة بما تضمنته وبما أحدثته من تأثيرات الحصن الذي حمى المجتمع القروسطي،والعصب الذي حافظ على تماسكه لعدة قرون.

لقد شكل إقحام الدين في الصراعات السياسية عاملاً من عوامل تشويه القيم،وعائقاً من معوقات تفتح المواهب والعقول،وخطراً على حياة الأفراد والجماعات،وقد رأى فريق من الفلاسفة أنه لابد من نزع القداسة عما ليس مقدساً،ولابد من تقديم تفسيرات منطقية وعقلانية للممارسات الإيديولوجية،ولعمليات توظيف الدين في الصراعات الإيديولوجية.

وقد ذهب الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون بعيداً في نقد الدين وفي نسف الأساس المقدس الذي يقوم عليه،ويمكّن من توظيفه لأغراض مختلفة هي في معظمها أغراض لا إنسانية تحتقر الإنسان وتحط من قدره بشكل مباشر أو غير مباشر فهاهو يفسر الدين تفسيراً أرضياً بعيداً عن الإيمان بأي شكل من أشكال العالم الأخر المتعالي الذي يفرض قيمه على عالمنا مبيناً «أن الدين رد فعل دفاعي تقاوم به الطبيعة قول العقل باستحالة اجتناب الموت»[40].

ويترتب على هذا البيان البرغسوني نقل المرجعية القيمية من السماء إلى الأرض بما يتضمنه هذا النقل من إضعاف وتفنيد لكثير من الأسس الثيوقراطية للحكم،ومن التأسيس والتأييد لأشكال الحكم التعاقدي الذي يحتضن أطراً مؤسسية تفسح في المجال أمام تغيير وتطوير القيم وفقاً لاعتبارات أرضية،وخدمة للمصالح الإنسانية المتنامية والمتجددة.

وقد وجه برهاز سكينر انتقادات قوية وقاصمة للقيم الدينية عندما نسف الأساس المقدس الذي تستند إليه هذه القيم قائلاً: «إن الإله عبارة عن نموذج أصلي للخيال قصد به التفسير»[41]،وإذا كان الإله كذلك أي مجرد فكرة إنسانية أو أداة تفسيرية فإنه لن يكون قادراً على أن يكون مرتكزاً لقيم ثابتة مطلقة تعلو على الزمان والمكان والتغير،ولكن يكون مرجعاً مناسباً للاستناد إليه في حسم الخيارات وفي مراجعة الإنجازات وتقويم الأداء،بل ستكون القيم المطلقة التي تؤسس على تصوره وتنسب إلى عقله الذي لا يخطئ أداة تستخدم في الصراع الاجتماعي لإفحام الخصم ولفرض قيم المناوئ التي تحمل خياراته ومصالحه الإيديولوجية عليه،وبالتالي ستصبح القيم الإنسانية التي تُغلف بالمقدس وتنسب إلى المتعالي وسيلة للإخضاع وأداة للهيمنة وتحقيق المكاسب الفئوية على حساب إنسانية الإنسان وكرامته،وعلى حساب قدرته على إبداع الأفكار وتحقيق التطور.

لقد كان لدى سكينر إيمان عميق بنسبية القيم وبتغيرها وبتغير الإنسان معها تبعا لظروف اجتماعية ومستويات تطور معرفي مختلفة،وقد رأى عندما قدم قراءته عن ذلك أن التغير الإنساني والقيمي هو تغير مستمر ومفتوح ولا نستطيع حصره في مجال ضيق،وأشار إلى هذا المعنى عندما قال: «من المفروض أن الإنسان سيستمر في التغير ولكننا لا نستطيع القول في أي اتجاه»[42] لأن اتجاه التغير يحدده العقل الإنساني المتفاعل على نحو إبداعي وخلاق مع ظروف بيئتيه الطبيعية والاجتماعية ومع مستجدات عصره.

---

[40] – برغسون،هنري،*منبعا الأخلاق والدين*،ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم،دار العلم للملايين،الطبعة الرابعة،بيروت،1984،ص150.

[41] – سكينر،ب.ف،*تكنولوجيا السلوك الإنساني*،ترجمة د. عبد القادر يوسف،سلسلة عالم المعرفة 32،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،1980،ص175.

[42] – المرجع نفسه،ص181.

الاستنتاجات والتوصيات:

إن الخلافات حول طبيعة القيم، وحول مطلقيتها أو نسبيتها ليست مجرد خلافات فكرية؛بل هي خلافات تضرب جذورها في أعماق المجتمع وتعكس بشكل أو بأخر طبيعة الصراعات بين طبقاته وفئاته التي تختلف في طبيعة مصالحها وفي متطلبات تحقيقها.

إن الخلافات حول مطلقية القيم أو نسبيتها تخفي دائماً صراعات إيديولوجية ومصالح طبقية وعى الإنسان ذلك أم لم يعه؛فالقول بالقيم المطلقة هو قول أصحاب الإيديولوجيات المحافظة التي تستفيد من واقع محدد وتسعى إلى تثبيته؛والقول بالقيم النسبية هو قول الفئات التقدمية صاحبة المصلحة في إزاحة الواقع القائم واستبداله من خلال نسف مرتكزاته القيمية واستبدالها.

ويستند أصحاب الآراء المطلقة في القيم علاوة على مواقفهم الإيديولوجية المحافظة على اعتقاد بوجود حقائق ومعارف ثابتة لا تتغير؛بينما يرى أصحاب الآراء النسبية في القيم علاوة خلفياتهم الإيديولوجية التقدمية أن الحقائق والمعارف الإنسانية من طبيعة نسبية متغيرة؛ويعتبر فهم الأبعاد الإيديولوجية للدراسات القيمية عاملاً مهماً في تشخيص الكثير من أزمات المجتمع ومشكلاته وفي التأسيس لحلها.

المراجع:

1. نيسبت،روبرت– وبيران،روبرت،علم الاجتماع،ترجمة جريس خوري،دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت،طبعة أولى،1990.
2. ابراهيم،زكريا،المشكلة الخلقية،مكتبة مصر،القاهرة،د.ت.
3. مطر،أميرة حلمي،جمهورية أفلاطون،مكتبة الأسرة،القاهرة،1994.
4. العوا،عادل،العمدة في فلسفة القيم،دارطلاس،دمشق،1986.
5. جولدشتاين،توماس،المقدمات التاريخية للعلم الحديث . من الأغريق القدماء حتى عصر النهضة،ت أحمد حسان عبد الواحد،سلسلة عالم المعرفة،عدد 296،الكويت،2003.
6. روز،ستيفن وأخرون،علم الأحياء والإيديولوجية والطبيعة البشرية،ترجمة د.مصطفى ابراهيم فهمي،سلسلة عالم المعرفة148،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،أبريل 1990.
7. هازار،بول،أزمة الضمير الأوربي،ترجمة جودت عثمان ومحمد نجيب المستكاوي،وزارة الثقافة،دمشق،2004.
8. جلسون،ايتين،روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط،ت أ.د.إمام عبد الفتاح إمام،مكتبة مدبولي،ط3،مصر،1996.
9. شاتيليه،فرانسوا،تاريخ الإيديولوجيات ج2،ت أنطون حمصي،وزارة الثقافة،دمشق،1997.
10. بودون،ريمون، أبحاث في النظرية العامة في العقلانية – العمل الاجتماعي والحس المشترك،ترجمة الدكتور جورج سليمان،المنظمة العربية للترجمة،مركز دراسات الوحدة العربية،طبعة أولى،بيروت،2010.
11. إمام،عبد الفتاح إمام،أفكار وموافق،مكتبة مدبولي،القاهرة،1996.
12. مانهايم،كارل،الإيديولوجية واليوتوبيا، ترجمة عبد الجليل الطاهر،مكتبة بغداد،1968.
13. شلر،هربرت،المتلاعبون بالعقول،ترجمة عبد السلام الرضوان،سلسلة عالم المعرفة 106،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،مارس 1999.

14. برغسون،هنري،منبعا الأخلاق والدين،ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم،دار العلم للملايين،الطبعة الرابعة،بيروت،1984.

15. سكينر،ب.ف،تكنولوجيا السلوك الإنساني،ترجمة د. عبد القادر يوسف،سلسلة عالم المعرفة 32،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،1980.

باللغة الإنكليزية:

[1].PERRY.R. ,*General theory of value*,Harvard university press,1950.